صورة الإسلام في الغرب كيف «صنعت» وكيف نغيّرها؟

(*) قدمت هذه الورقة البحثية في ندوة «الإسلام في الإعلام الغربي» التي عقدها المجلس الإسلامي العالمي في لندن في يوم ١٨ شعبان ١٤١٥ هـ/الموافق ١٩ يناير ١٩٩٥ م.

تقوم منابر التثقيف والتوجيه ومؤسسات التطبيع الاجتماعي في أي مجتمع بوظيفة أساسية هي صنع وتكوين الصور الذهنية لأفراد المجتمع والترويج لها وترسيخها في العقل الجمعي. ونقصد بـ «الصور الذهنية» تلك التصورات العقلية الشائعة بين أفراد جماعة معينة والتي تحدد اتجاه هذه الجماعة نحو شخص أو شعب أو فكرة أو شيء معين. وهذه الصور الذهنية (Images) قد تتحول إلى «صور نمطية» (Stereotypes) عندما تتكرر على نحو ثابت وجامد وتتسم بالتبسيط المفرط والحكم التعميمي العاطفي.

وتبرز وسائل الإعلام باعتبارها أهم وأخطر المؤسسات الاجتماعية التي تسهم بدور فاعل ومؤثر في صياغة الصور الذهنية والنمطية في العقل الجمعي للمجتمعات الحديثة. فالإنسان عموماً ـ وإنسان العصر بخاصة ـ يعيش في عالمين مختلفين، أحدهما قريب ولكنه صغير ومحدود، وهو محيطه المباشر الذي يستقي معلوماته عنه بنفسه مباشرة عن طريق حواسه التقليدية. أما العالم الآخر فهو عالم بعيد ولكنه الأوسع والأرحب، وهو ما لا يستطيع إدراكه مباشرة عن طريق الحواس فيلجأ إلى استقاء معلوماته عنه وبواسطة وسائل النقل والاتصال والتفاعل الاجتماعي. وهذا العالم يسمى

بـ «العالم المنقول» (Reported World) في مقابل العالم المحسوس. وهذا العالم المنقول هو الذي يتألف من الصور الذهنية والنمطية التي تصنعها أو تنقلها وسائل الإعلام والاتصال بالدرجة الأولى[1].

ويحسن بالمهتمين بتحليل ودراسة خلفيات الحملة الإعلامية المحمومة التي تستهدف الإساءة إلى الإسلام والمسلمين في الغرب أن يولوا عناية معتبرة لطبيعة الصور الذهنية والنمطية في العقل الجمعي الغربي، والمصادر المتعددة التي تسهم في تكوين تلك الصورة، والدور القوي الذي تقوم به وسائل الإعلام الجماهيرية في الغرب في تشكيل ملامح تلك الصور وصياغة تفاصيلها حتى يمكن لنا فهم هذه الظاهرة فهماً علمياً، في سياق تفسيراتها الموضوعية وخلفياتها التاريخية. وبالتالي يمكننا ـ في ضوء هذا الفهم العلمي الموضوعي ـ تقويم نتائج الظاهرة وتحليل دوافعها والوصول إلى رؤية (أو رؤى) عملية وواقعية لمواجهتها والتصدي لها، بدلاً من الإغراق في التنديد بالظاهرة والتشكي منها والتباكي على آثارها السيئة في حياتنا.

ولقد تعجب كثيرون من الطريقة التي عالجت بها وسائل الإعلام الغربية ـ الأمريكية بخاصة ـ حادثة التفجير الإجرامي في مدينة نيويورك التي وقعت عام ١٩٩٢ م، إذ سارعت بعض الصحف الأمريكية إلى نشر خبر القبض على أحد المتهمين في الحادثة بالبنط العريض «القبض على إرهابي مسلم» وتساءل هؤلاء المتعجبون: لماذا لا يتحدث الإعلام الغربي عما كانت تقوم به الميليشيات الإيرلندية في بريطانيا في إطار «الإرهاب الكاثوليكي»؟ ولماذا لا توصف الوحشية العدوانية الصربية بـ «الإرهاب الأرثوذكسي»؟ ولماذا لم تكتب الصحف الأمريكية عن «الإرهاب الهندوسي» عندما نسف الهندوس مسجد بابري في الهند؟

---

(١) انظر: عبد القادر طاش: صورة الإسلام في الإعلام الغربي، ط ٢، (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٤١٤ هـ/١٩٩٣ م) ص ١٩ ـ ٢٢.

بل لماذا لم يشنع على الأمريكي «ديفيد كوريش» الذي روع أمريكا بوصفه ممثلاً لـ «الإرهاب المسيحي» بدل وصفه بأنه مشعوذ يمثل الطوائف المنحرفة (Cults)؟!

ولهؤلاء المتعجبين نقول: إن الإساءة للإسلام وترويج - بل ترسيخ - الصور النمطية الكريهة عنه وعن اتباعه ليس جديداً في المجتمع الغربي. أن صنع الصور النمطية المسيئة للإسلام والعرب وترسيخها في العقل الجمعي في المجتمعات الغربية ظاهرة قديمة ومتجددة. وهي ظاهرة ذات جذور تاريخية وفكرية تمتد لقرون عديدة. ولذلك يمكننا القول - دون مبالغة أو تجن - إن الإسلام كان - وما زال - أكثر الأديان تعرضاً للإساءة في الغرب كما أن العرب المسلمين هم أكثر شعوب الأرض حظاً من التشويه والتجريح في تاريخ المجتمعات الغربية.

وبنظرة تاريخية نستطيع إدراك تطور الصور النمطية المسيئة للإسلام والعرب في التراث والواقع الغربي عبر ثلاث مراحل مميزة هي:

☆ المرحلة اللاهوتية.

☆ المرحلة الاستشراقية.

☆ المرحلة الاعلامية.

جهود اللاهوتيين والمستشرقين

وتمتد المرحلة الأولى التي أسميتها بـ «اللاهوتية» من بدء المواجهة الفعلية بين الإسلام والنصرانية في القرون الوسطى، إلى نهاية الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر تقريباً. وقد استمد الوعي الغربي صورته الذهنية عن الإسلام والعرب في القرون الوسطى من كتابات ونشاطات اللاهوتيين النصارى المتعصبين. ويرى (ريتشارد سوذرن) - في كتابه «صورة الإسلام في أوربا في القرون الوسطى» أن المصدر الذي استقى منه

الغربيون تصورهم عن الإسلام هو كتبهم المقدسة. ويؤكد أن اللاهوتيين الغربيين كانوا قلقين مما أسموه «بتأثير القيم الإسلامية على القيم المسيحية تأثيراً تدميرياً عندما تواجهها» ورأى هؤلاء في ما بعد أن حماية المسيحية من الإسلام لا تكون إلا بضربه عسكرياً والاستيلاء على أرضه وإقناع معتنقيه باتخاذ المسيحية ديناً.

ويرى هشام جعيط ـ في كتابه «أوروبا والاسلام» ـ أن رؤية الصليبيين للإسلام والعرب في هذه المرحلة كانت رؤية شعبية مشبعة بالخيالات. إذ كانو يعتبرون المسلمين وثنيين ومحمداً ساحراً وشخصاً فاسداً وزعيم شعب فاسد! و«اغنية رولان» بدورها تقدم العرب على أنهم وثنيون يخلطون الحماسي بالشاذ![1] ولم يبعد محمد أسد ـ رحمه الله ـ عن الحقيقة عندما قرر أن الأذى الذي جلبته الحروب الصليبية «لم يقتصر على اصطدام استعملت فيه الأسلحة بل كان أولاً وقبل كل شيء أذى عقلياً نتج عنه تسميم العقل الغربي ضد العالم الإسلامي عن طريق تفسير التعاليم والمثل العليا الإسلامية تفسيراً خاطئاً متعمداً، لأنه إذا كان للدعوة إلى حملة صليبية أن تحتفظ بصحتها فقد كان الواجب والضروري أن يوسم نبي المسلمين بعدوّ المسيح، وأن يصور دينه بأكلخ العبارات كينبوع للفسق والفجور والانحراف عن الحق. وفي أيام الحروب الصليبية ذاتها تخللت العقل الأوروبي وبقيت فيه تلك الفكرة المضحكة القائلة أن الإسلام إنما كان يدعو إلى عبادة الشهوة وإلى القوة الوحشية»[2].

أما المرحلة الاستشراقية فقد بدأت بعد تراجع الصليبيين وبروز القوة الإسلامية العثمانية وتهديدها لاوروبا. وإذا كانت حركة الاستشراق تقوم

---

(١) هشام جعيط: أوربا والإسلام (بيروت: دار الحقيقة، ١٩٨٠ م) ص ١٩٧.

(٢) محمد أسد: الطريق إلى الإسلام، ترجمة عفيف البعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٧٦)، ص ٢٢ ـ ٢٣.

على أساس دراسة لغات الشرق وأديانه وطرق حياته الاجتماعية فإنها ـ في مجملها ـ لم تكن إلا أداة لتهيئة المناخ الملائم والأرضية الصالحة لتحقيق أهداف الغزو الاستعماري الغربي للبلدان العربية والإسلامية. وبذلك فقد كانت حركة الاستشراق واحدة من أخطر القنوات التي أسهمت في تشويه صورة الإسلام والمسلمين وترسيخ الصورة النمطية.

ويلخص لنا المؤرخون صورة الإسلام لدى الغربيين في القرون الوسطى في كونه ـ الإسلام ـ «مخرباً وقادماً يدعو العاطفة تحديداً وهو «بدائي» و«تبسيطي» كما أن اللاهوتيين حرصوا على إلصاق صفتين مشينتين بالإسلام ونبيه هما: إن الإسلام «شهواني ومادي في فكره وفي مفهومه للجنة» من جهة ومن جهة أخرى فهو دين «عدوان وقوة وعنف» ولذلك فإن الإسلام لا يقبل الخلاف العقلاني! وهذه التصورات الفاسدة شكلت ـ كما يرى (سوذرن) ـ «أول منظومة شاملة ومتماسكة نسبياً عن الإسلام وصورته التي بدأت تطلع في الغرب وسط متغيرات الأحداث». ويضيف بأن هذه التصورات كانت «ولا شك نتاجاً للجهل المطبق بالإسلام مضامين وتاريخاً، لكنه جهل ذو طبقات ومراحل بالغة التعقيد»[1].

وفي الحقبة التي شهدت الحروب الصليبية بين المسلمين وصليبيي أوروبا كانت الأوصاف التي استغلها مؤرخو الحملة الأولى على العرب والمسلمين ـ كما يقول المؤرخ المصري قاسم عبده قاسم ـ كاشفة عن مدى التعصب الذي كان يحكم أوروبا الكاثوليكية أنذاك.

---

(١) ريتشارد سوذرن: صورة الإسلام في أوربا في القرون الوسطى (بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٤)، ص ٥٠ ـ ٦١.

فلم يكن الأوروبي ليعترف أو يسمح بوجود «الآخر» فهذا «الآخر» لم يكن نتاجاً لمعرفة واقعية، «وإنما هو نتاج دعاية نزقة غذتها روح التدين الشعبي العاطفي الذي يتسم بالتعصب المقيت في ظل ظروف اجتماعية واقتصادية متدهورة»[1]. الكريهة لهما في العقل الغربي الفردي منه والجمعي. ونقرأ ما يقوله «مارسيل بوازار» ـ المؤرخ الفرنسي ـ في كتابه «الإسلام اليوم»: «إن كتابات المستشرقين ـ عدا بعض الاستثناءات النادرة ـ لم تساهم كثيراً في تحسين تفهم الإسلام أو إعادة دقة الصورة التي كانت لدى الرأي العام الغربي إلى نصابها الصحيح. لأن الاستشراق كان في الأصل أحد الفروع العلمية المرتبطة بالعلوم الاستعمارية في فرنسا وفي بريطانيا العظمى وفي البلاد الواطئة. فقد كان المطلوب إجمالاً فهم العقلية الإسلامية فهماً جيداً لتسهيل الإدارة الاستعمارية للشعوب الإسلامية»[2].

ويؤكد «ادوارد سعيد» ـ الباحث المتخصص في الاستشراق ـ هذا الرأي حيث يقول إن خبرة المستشرق الخاصة وضعت في خدمة الاستعمار لأنه في اللحظة الحرجة حيث يجب على المستشرق أن يقرر بين ولائه وميوله للشرق، وبين ولائه للمستعمر الغربي، فإنه دائماً يختار الأخير على الأول. ومنذ عصر نابليون إلى الآن لم يتغير الأمر[3]. ويورد محمود حمدي زقزوق نماذج عديدة لمستشرقين كانوا يخدمون المؤسسات الاستعمارية الغربية منهم الالماني «كارل هينرش بيكر»

---

(١) قاسم عبده قاسم: «الحروب الصليبية في الأدبيات العربية والأوربية واليهودية» مجلة «المستقبل العربي» (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية)، العدد ١٠٢ اغسطس ١٩٨٧ م ص ١٦.

(٢) مارسيل بوازار: الإسلام اليوم (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٦ م، ص ١٩ ـ ٢٠.

(٣) ادوراد سعيد: الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨١)، ١٩ ـ ٢٠.

الذي أسس مجلة «الإسلام» في المانيا وقدم فيها دراسات عديدة تخدم الأهداف الاستعمارية الالمانية في القارة الأفريقية. ومنهم: المستشرق الروسي «بارتولد» الذي كان مكلفاً بالقيام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية في آسيا الوسطى[1].

ومنهم المستشرق الفرنسي «ديشاسي» الذي كان يشغل منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية، و«ماسنيون» الذي كان مستشاراً للإدارة الاستعمارية الفرنسية في الشؤون الإسلامية.

ولا تختلف الصورة التي رسمها المستشرقون للإسلام والعرب عن تلك التي رسمها اللاهوتيون والصليبيون، فهذا «سيمون أوكلي» وهو يعد من المستشرقين غير المتحيزين نسبياً يصف نبينا محمداً ﷺ ـ حاشاه ـ بأنه «رجل خبيث جداً وماكر، وأن ما يبديه من شمائل طيبة كانت مجرد أمر ظاهري يخفي وراءه حقيقة نفسه التي كان يحكمها الطموح والطمع»[2]! أما المستشرق الفرنسي «فولني» فيتحدث على «قانون محمد» قائلاً: «إن الله جعل محمداً وزيره في الأرض، وأعطاه العالم ليخضع بالسيف كل من يرفض الاقتناع بقانونه» ثم يدين هذا الرسول بأنه «لا يعظ إلا بالقتل والمذابح» ويصفه بأنه شخص طموح واستخدم الدين «لمشاريعه في السيطرة ولتطلعاته الدنيوية»[3]!

السياسة والإعلام والصورة الجماهيرية

ولا تختلف الصورة النمطية المسيئة للإسلام والعرب التي صاغها اللاهوتيون والصليبيون والمستشرقون عن الصورة المعاصرة التي

---

(١) د. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية والحضارية (الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٤٠٤ هـ) ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) انظر المرجع السابق: ص ٣٣.

(٣) انظر هشام جعيط: مرجع سابق، ٣٢ ـ ٣٣.

يصوغها السياسيون والإعلاميون ومن يسمون اليوم بـ «خبراء الإسلام والدراسات الشرقية وشؤون الشرق الأوسط» في المجتمعات الغربية. وإذا كان رجال الكنيسة المتعصبون والصليبيون الطامعون والمستشرقون الذين سخروا معرفتهم بالإسلام والعرب لخدمة الاستعمار، إذا كان هؤلاء هم الذين رسموا الصورة السيئة لنا وروّجوا لها في الماضي فإن راسمي الصورة المعاصرة يتركزون في ميدانين اثنين أحدهما: مراكز الدراسات الشرقية والإسلامية في الجامعات الغربية والدوائر السياسية في الغرب. أما الميدان الآخر وهو الميدان الأوسع والأكثر تأثيراً على المستوى الجماهيري، فهو وسائل الإعلام المختلفة.

إن بيوت «الخبرة» الإسلامية والشرقية في الجامعات ومراكز البحث العلمي تعد واحدة من أهم المصادر التي يعتمد عليها السياسيون وصانعو القرار وموجهو السياسات الغربيون في معالجة قضايا العلاقات الخارجية مع الحكومات والشعوب العربية والاسلامية. والعاملون في هذه «البيوت» ممن يطلق عليهم وصف «الخبراء» يسهمون في التأثير على صانعي القرار على نحو قوي. ويعترف «ليونارد بايندر» ـ وهو استاذ العلوم السياسية ودراسات الشرق الأوسط في جامعة شيكاغو الأمريكية ورئيس جمعية دراسات الشرق الأوسط سابقاً ـ بأن «الدافع الرئيس إلى نشوء وتطور دراسة المناطق داخل الولايات المتخحدة كان سياسياً، حيث كان غرضنا الأساس هو مصارعة القوى المعارضة لنا وتأمين النفوذ السياسي». ويحدد «بايندر» نفسه خطايا دراسات هؤلاء «الخبراء» فيقول إن «دراسات الشرق الأوسط تعاني من اللاموضوعية والتعصب والانحياز الديني والتشويهات الأيديولوجية، كما تعاني من الأكاديميين غير المؤهلين»[1]!

---

(١) راجع: محمد كمال الدين إمام: «صورة الإسلام في وسائل الإعلام الغربية»، مذكرة غير منشورة، كلية الشريعة بالرياض ١٤٠٥ هـ، ص ٦.

أما وسائل الإعلام فهي أخطر المؤسسات التي تسهم في تشويه صورة الإسلام والعرب في المجتمعات الغربية. ولعل أكثر العوامل التي ساعدت هذه الوسائل على التفوق على غيرها في التشويه أنها تتمع بقدرة فائقة على الانتشار وبقوة جذب وتأثير مبهرين مما يجعل مادتها التي تصنع بها الصورة المسيئة مادة جماهيرية يتعرض لها الملايين من الناس في وقت واحد تقريباً فيتأثرون بها ويتلقفونها بينهم وترسخ في عقولهم بيسر، ثم يصعب بعد ذلك إزالتها أو تغييرها إن لم يكن ذلك مستحيلاً. وبذلك تصبح الصورة المسيئة للإسلام التي يقدمها الإعلام الغربي - وبسبب انتشاره الدولي وتأثيره العالمي - صورة جماهيرية دولية تعبر الحدود بلا رقيب وتدخل إلى البيوت بلا استئذان.

ومن هنا تنبع خطورة الدور الذي يقوم به الإعلام الغربي في هذه الحملة المحمومة لتشويه صورتنا في العالم كله. يقول (جاك شاهين) - وهو أكثر الباحثين اهتماماً بصورة العرب في الإعلام الأمريكي - أنه انصرف منذ عشرين سنة إلى تاريخ الصور السائدة في الثقافة الشعبية الأمريكية فدرس ما يزيد على ٢٥٠ كتاباً هزلياً ظهر خلال ٥٠ عاماً، بدءاً من «دونالد داك» وحتى «سوبرمان» كما حلل مئات البرامج والرسوم الكاريكاتورية التي عرضت على شاشات التلفزيون مثل «بوباي» و«ميجورداد» وأفلام رسوم متحركة يفوق عددها ٤٥٠ فيلماً أولها «رقصة فاطمة» (١٨٩٣ م) وآخرها «علاء الدين» الذي قدمته ؤسسة «والت ديزني» مؤخراً (١٩٩٣ م). ويخرج «شاهين» من كل ذلك بالقول: «دلت أبحاثي على أن كلمتي «عربي» و«مسلم» تثيران ردود فعل عدائية يصعب معها على الجمهور أن يميز الحقيقة من الخيال. وربما لم يتعرض أي شعب في العالم نتيجة ذلك إلى هذا المدى

من سوء الفهم كما يتعرض الـ ٢٧٠ مليون عربي. كما قد يكون الإسلام، الذي يعتنقه ما يزيد على بليون إنسان بينهم ٦ ـ ٨ ملايين أمريكي، أكثر الأديان معاناة من جهل الآخرين بحقيقته». ويشير (شاهين) إلى أن «هوليود» وهي مدينة السينما الأمريكية ـ قدمت منذ حرب الخليج ما يزيد على ٤٠ فيلماً، منها «لعبة القتل» و«نينجا الأمريكي والإبادة» و«في الشمس» و«الدرع البشري». وغالت هذه الأفلام كلها في تشويه سمعة العرب، إذ عرضت شريطاً لا ينتهي من الصور التي يبدو فيها العرب أشبه بشعوب منقرضة لشدة تخلفهم، ويمثلون في الوقت ذاته خطراً رهيباً يتهدد الآخرين. ولم تروح مشاهدها الوهاجة المتكررة عن أنفس الجمهور ببراءة، بل وجهته إلى كراهية هذا ومحبة ذاك»[1].

وليس بغريب أن نجد أن «بيوت» الخبرة السياسية ووسائل الإعلام تشتركان معاً ـ كل في ميدانه ـ في تشكيل الصورة النمطية للإسلام والعرب في العقل الجماهيري الغربي من جهة، وفي العقل السياسي الغربي من جهة أخرى. ولذلك يقول (ادوارد سعيد) ـ في كتابه القيم «تغطية الإسلام» ـ إن نتائج دراساته تؤكد تطابق وجهات نظر الخبراء في الدراسات الشرقية والإسلامية الذين تستعين بهم الدوائر السياسية في الغرب وبين الطريقة التي تعالج بها وسائل الإعلام الغربي أمور الشرق والإسلام.

وقد أبرزت تلك الدراسات التي قام بها (ادوارد سعيد) أن الفكرة المركزية التي يحملها الطرفان ـ الخبراء ووسائل الإعلام ـ هي أن الإسلام يمثل تهديداً للغرب. وهذا واضح من نظرية «برجنسكي» عن

---

(١) جاك شاهين: «حرب الخليج وصورة العربي في أمريكا» جريدة الحياة (لندن) العدد ١٠٩٨٩ بتاريخ ١٩٩٣/٣/١٤ م.

«هلال الأزمات» إلى نظرية «برنارد لويس» عن «عودة الإسلام». ويعلق (ادوارد سعيد) قائلاً: إن الإسلام بالنسبة لهؤلاء - «يعني نهاية الحضارة الغربية باعتباره ديناً لا إنسانياً وغير ديمقراطي، ولا عقلاني». ولذلك فإن الإسلام - في نظر هؤلاء - يمثل تهديداً ينبعث من حركة ناهضة لا تحمل خطر العودة إلى القرون الوسطى فحسب، بل كذلك تدميراً للنظام الديمقراطي في العالم الغربي». ويختتم (سعيد) بالقول إن هذه النظرة للإسلام تتفق مع التفكير الاستشراقي الذي رسخ الاعتقاد بأن «الاسلام» لا يمثل منافساً رهيباً فحسب بالنسبة إلى الغرب، بل أنه يمثل كذلك تحدياً متأخراً للمسيحية»[1].

ونخلص من هذا العرض التاريخي الواقعي لتطور تشكيل الصورة المسيئة للإسلام والعرب في العقل الغربي إلى نتائج عدة منها:

* إن صنع الصورة قديم وله جذور تاريخية ممتدة في الزمن، وهو ليس جديداً أو ظاهرة حديثة.

* إن فئات أو قطاعات معينة في المجتمعات الغربية هي التي تبنت صناعة تلك الصورة المشوهة للإسلام والعرب وروجت لها، وهم - بالتحديد - اللاهوتيون المتعصبون، والصليبيون الطامعون، والمستشرقون الخادمون للاستعمار، والسياسيون «الأمبرياليون» والإعلاميون المعاصرون.

* إن وسائل عديدة ومتنوعة استخدمت في صياغة تشكيل تلك الصورة عبر التاريخ ومنها الكتب المقدسة، والروايات والأغاني

---

(١) انظر: ادوراد سعيد: تغطية الإسلام: كيف تتحكم وسائل الإعلام الغربي في تشكيل إدراك الآخرين وفهمهم. ترجمة سميرة خوري (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٣ م)، ص ٣٦.

الشعبية، والابحاث الاستشراقية، والاستشارات والدراسات السياسية، والمواد الإعلامية بمختلف ألوانها وأشكالها.

* إن دوافع المتبنّين لهذه الحملة المعادية للإسلام تختلف في تفاصيلها ـ تبعاً لاختلاف الظروف والمتطلبات ـ فقد كان اللاهوتيون يهدفون إلى حماية المسيحية ـ في نظرهم ـ من زحف الإسلام. واتخذ الصليبيون تشويه الإسلام مسوغاً لتحقيق أهدافهم في غزو بلاد المسلمين. وجعل المستشرقون دراسة الإسلام غطاءً لخدمة أغراض الاستعمار الغربي. واستفاد السياسيون «الأمبرياليون» من دراسة المراكز المتخصصة لإحكام سيطرتهم الفكرية والسياسية والاقتصادية على العالم الإسلامي. وانساق الإعلاميون وراء الحملة المشوهة للإسلام سعياً لترويج مادتهم وتسويق بضائعهم.

البواعث والتفسيرات

لماذا يواصل الغربيون صناعة تلك الصورة القبيحة للإسلام والمسلمين؟ ولماذا يعيدون انتاجها عصراً بعد عصر، ويعملون على ترويجها جيلاً أثر جيل؟

يختلف الباحثون والدارسون لظاهرة صناعة الصورة السيئة للإسلام في الغرب في تحديد الأسباب التي تجعل الغربيين يواصلون إعادة انتاج تلك الصورة كما تتفاوت تفسيراتهم لبواعث تلك الظاهرة وفقاً للزوايا التي ينظرون منها والأبعاد التي يركزون عليها. فمنهم من ينظر إلى المسألة من زاوية تاريخية فيقولون: إنَّ التراث الغربي الحافل بالعداء للإسلام والذي تراكم عبر العصور لا يزال يدفع الغربيين إلى اتخاذ مواقف سلبية من الإسلام والمسلمين.

ويتبنّى هشام شرابي ـ وهو باحث عربي مقيم في الولايات المتحدة الأمريكية ـ هذا الاتجاه عندما يقول: «إن مصدر التشويه في الصورة العربية في الغرب ليس مجرد جهل، ولكنه نمط محدد من المعرفة تمتد جذورها إلى عداء ديني وعرقي تجاه العرب والإسلام». ولذلك فهو يرى أنّ الإكثار من المعلومات عن العرب والإسلام وتحسين نوعيتها «غير كافيين لحل هذه المشكلات فالحقائق في النتيجة النهائية تذوب في نمط التفكير السائد لدى مستقبليها. وهذا النمط هو الذي يصعب تغييره».

ويستشهد شرابي بمقولة الجنرال «اللنبي» عندما دخل مدينة القدس سنة ١٩١٨ م حيث وقف على قبر صلاح الدين الأيوبي وقال في إشارة واضحة إلى الإرث التاريخي الذي حمله في نفسيته الصليبية: «ها نحن عدنا يا صلاح الدين». ويرى أن اتجاه الغرب نحو «العلمنة» في القرون المتأخرة «لم يؤد إلى القضاء على الشعور المعادي للإسلام، كما أنه لم يؤد إلى ردم الهوة بين الحضارتين. وبالعكس فقد استمدت الامبريالية الغربية ركائزها من تراث القرون الوسطى القائم على العداء والصراع التغير الوحيد الذي حصل هو أن العلاقة أصبحت تقوم على السيطرة والاستغلال»[1].

ويرتبط هذا الشعور المعادي للإسلام في العقل الغربي ـ في نظر بعض الباحثين ـ بعنصر نفسي بارز من عناصرالتكوين الفكري للإنسان الغربي المتمثل في الاعتقاد بالتفوق العنصري. ويلخص عبد الوهاب المسيري الأفكار الأساسية للفكر العنصري الغربي في عصر التحديث والأمبريالية كما يأتي:

١ ـ الحضارات غير الغربية أدنى بكثير من الحضارات الغربية على المستويات السياسية والاجتماعية والأخلاقية.

(١) هشام شرابي: «جذور تشويه الصورة العربية في الغرب» الإعلام الغربي والعرب: أبحاث ومناقشات ندوة الصحافة الدولية ـ لندن ـ ١٧٩ ـ ١٩٩.

٢ ـ الشعوب غير الغربية تختلف عرقياً عن الشعوب الغربية وهذا الاختلاف وراثي.

٣ ـ ولأن الحضارة والعرق شيء واحد، فإن التخلف الحضاري أمر وراثي، وبالتالي حتمي[١].

وقد أدى هذا الفكر العنصري إلى تميز العقل الغربي بكونه عقلاً «أحادي النظرة» ولذلك فهو لم يستطع أن يفهم الإسلام على حقيقته. وقد أشار علي عزت بيجوفيتش إلى أن عداء الغربي الحالي للإسلام ليس مجرد امتداد للعداء التقليدي والصدام المسلح بين الإسلام والغرب، وإنما يرجع إلى تجربته التاريخية الخاصة مع الدين، وإلى عجزه عن فهم الإسلام بسبب طبيعة العقل الأوربي «أحادي النظرة» وبسب قصور اللغات الأوروبية عن استيعاب المصطلحات الإسلامية[٢].

ويغلّب باحثون آخرون العوامل السياسية والاقتصادية في الصراع الإسلامي ـ الغربي ويرون أنّ رغبة الغرب في بسط نفوذه وهيمنته على مقدرات المنطقة الإسلامية هي التي تجعله ينتج تلك الصورة المشوهة للإسلام ويوظفها لخدمة أغراضه. ويستند هؤلاء في رؤيتهم هذه على الحقيقة المتمثلة في كون العالم العربي والإسلامي منطقة استراتيجية يضم ـ إلى جانب موقعه المميز ـ خيرات عديدة. ولذلك فإن إخضاع هذه المنطقة للنفوذ الغربي يُعدّ أحد أهم ركائز التخطيط الاستراتيجي في السياسة الغربية.

ويستشهد أصحاب هذا الرأي بالتوصيات المشهورة لمؤتمر لندن

---

(١) عبد الوهاب المسيري: «العنصرية الغربية في عصر التحديث وعصر ما بعد الحداثة» جريدة «الحياة العدد ١١٥٠٨، بتاريخ ١٩٩٤/٨/٢١ م.

(٢) انظر: مقدمة محمد يوسف عدس لكتاب بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب (الكويت: مجلة النور، ميونخ: مؤسسة بافاريا، ١٤١٤ هـ/١٩٩٤ م)، ص ١٩.

المبنية على تقرير (كامبل بانرمان) سنة ١٩٠٧ م. وهي حصيلة اجتماع حاشد ضم كبار علماء التاريخ والاجتماع والزراعة والنفط والجغرافيا والاقتصاد والسياسة وخبراء الاستراتيجيات في جميع الدول التي تمثل الامبراطوريات الأوربية في مطلع هذا القرن الميلادي. وقد جاء في ذلك التقرير ما يلي:

«إن البحر المتوسط شريان حيوي لمصالح بريطانيا الآنية والمقبلة فهو جسر بين الشرق والغرب، وممر طبيعي لآسيا وأفريقيا وملتقى طرق العالم. ولتأمين حماية المصالح الأوربية المشتركة لا بد من السيطرة عليه وعلى شطآنه الجنوبية والشرقية، فكل من يسيطر على هذه المنطقة يسيطر على العالم». واقترح التقرير في سبيل تحقيق الهيمنة الغربية على المنطقة العربية ـ بالذات ـ «إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط أوربا بالعالم القديم ويربطها بالبحر المتوسط بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة عدوّة لشعب المنطقة وصديقة للدول العربية ومصالحها»[1] وبذلك مكّن الغربيون لليهود إنشاء كيانهم الغريب على أرض فلسطين لكي يكون هذا الكيان «الأداة» التي ينفذ الغرب بها أطماعه.

ويورد (ادوارد سعيد) في دراسته التي قدمها في «ندوة الإعلام الغربي والعرب» عام ١٩٧٩ م بعنوان «ثورة الإعلام ونهضة الإسلام» ما قاله (ستورت سكار) في مقالة له نشرت في العام نفسه: «بصراحة لا يساورني شك للحظة واحدة أن معظم ما يصدر عن الإسلام عبر وسائل الإعلام (في الغرب) يرتبط بصورة إجمالية بالصراع المستمر الذي تمتد جذوره

---

(١) انظر: إبراهيم يحيى الشهابي: نقاط على حروف في الصراع العربي الصهيوني (دمشق: دار الأدهم للترجمة والنشر، ١٩٧٦)، ٦١ ـ ٦٢.

بعيداً في التاريخ والذي يهدف إلى السيطرة على العالم الإسلامي» ويعلق سعيد على ذلك قائلاً: «إن الصورة المشوهة هي في الواقع تعبير عن واقع أكثر تعقيداً، وتهدف إلى تكريس نظام كامل من الأساطير الأيديولوجية التي نسجت حول الإسلام لخدمة مخططات الغرب في السيطرة على الشعوب الإسلامية وخيراتها»[1].

وقد أسهمت جملة من الأحداث السياسية الساخنة التي حفل بها العالم العربي والإسلامي في العقود الأخيرة مثل: الصراع العربي الإسرائيلي والثورة الإيرانية والجهاد الأفغاني وتصاعد موجة الصحوة الإسلامية وتفاقم أعمال العنف والإرهاب في بعض البلدان العربية والإسلامية في اتساع دائرة الإهتمام الإعلامي الغربي بالإسلام مما منح وسائل الإعلام مزيداً من الفرص لترسيخ الصورة المشوهة للإسلام في المجتمعات الغربية. ولا شك أن الحظر النفطي العربي الذي فاجأ الغربيين عام ١٩٧٣ م كان بمثابة الشرارة الأولى التي أوقدت نيران الحملة الجائرة على الإسلام والعرب والتي لم يشهد العالم لها مثيلاً وتتواصل فصولها حتى الآن.

ويركز بعض الباحثين ـ ومعظمهم من الغربيين ـ على العوامل بطبيعة وسائل الإعلام الغربية وقيمها الأخبارية وكيفية تناولها للأحداث. ويقول أصحاب هذا الرأي إن تشكيل الأخبار وتكوين الأراء في الغرب ـ كما هو في أي مكان ـ يتبع قواعد معينة ويتم ضمن أطر محدّدة، وعبر أعراف وتقاليد وقيم ينتمي إليها الإعلاميون الذين يقومون بهذا العمل. ويشير الصحفي الغربي (إريك رولو) إلى هذه الحقيقة قائلاً:

---

(١) ادوارد سعيد: «ثورة الإعلام ونهضة الإسلام» في الإعلام الغربي والعرب: أبحاث ومناقشات ندوة الصحافة الدولية، مرجع سابق، ص ١٣٨.

«إننا معشر الصحفيين متحيزون بطريقة أو بأخرى. مَنْ يمكن أن يكون موضوعياً أكثر من المصور؟ ومع ذلك فإن نوع العدسة التي يستعمل، والزاوية التي يلتقط منها الصورة التي يريد، تؤثر في الصورة التي يمكن أن تخرج عن مصور آخر يمتاز بـ «الموضوعية» و«التحيز» كالمصور الأول. نحن لسنا أولاد الأنابيب والمختبرات، نحن بشر. ولكل منا ثقافته وخلفيته وجذوره. لكل منا فلسفته في الحياة وتجاربه وأيضاً حساسياته الخاصة»[1].

ويستند العمل الإعلامي في الغرب إلى مجموعة من المعايير أو ما يسمى بـ «القيم الأخبارية» التي تؤثر على العاملين في وسائل الإعلام، سواء في اختيار المواد أو الأخبار أو الأراء التي يتيحون لها الفرصة للنشر، أو في صياغتها والتعبير عنها. ومن هذه المعايير الاتجاه نحو الاستجابة لرغبات الجمهور. ولذلك تركز التغطيات الإعلامية الغربية على كل ما هو سلبي وغريب ومثير في العالم العربي والإسلامي وقلّ أن يجد المرء اهتماماً يذكر بالجوانب الإيجابية. والأخبار وفقاً للمعايير الغربية «هي مجرد سلع تجارية تعرض للبيع. وهذه السلعة أو البضاعة يسهل ترويجها أو تسويقها كلما كانت غير مألوفة أو تتسم بطابع درامي» «والصحفيون يبحثون عن الأحداث المثيرة لأنها في رأيهم الأحداث الجديرة بالنشر»[2].

وينبغي عدم إغفال الدور الفعال للنفوذ الصهيوني في وسائل الإعلام الغربية في تكريس الصورة المشوهة عن الإسلام والعرب سواء

---

(١) اريك رولو: «مفاهيم خاطئة في وسائل الإعلام» في الإعلام الغربي والعرب: أبحاث ومناقشات ندوة الصحافة الدولية، مرجع سابق، ٢١٧.

(٢) انظر جيهان رشتي: الدعاية واستخدام الراديو في الحرب النفسية (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٥)، ص ٤٧٨.

أكان ذلك بالتأثير المباشر أم بممارسة الضغوط وانتهاج أساليب الترويع والتخويف. يقول الصحفي الأمريكي (هارولد بايتي) إن صيحة اللاسامية القبيحة هي العصا التي يستعملها الصهاينة لحمل غير اليهود على قبول وجهة النظر الصهيونية بشأن الأحداث العالمية أو على التزام الصمت». ويعزو (بايتي) أحد أسباب التغطية المشوهة من الأعلام الأمريكي للشرق الأوسط إلى نجاح اللوبي الصهيوني «في السيطرة على وسائل الإعلام الأمريكي بشنّ حملة احترافية لترويع وسائل الإعلام بمختلف الأساليب. وأخيراً لفرض الرقابة حتى أصبحت هذه الوسائل مطواعة وجبانة»[1].

ويضيف باحثون آخرون إلى العوامل السابقة عاملاً آخر هو العامل الذاتي المتمثل في ضمور الفاعلية الحضارية للمسلمين في الوقت الراهن، حتى غدت عقيدة الأمة ومبادئها وآمالها عرضة للتشويه والتحقير. كما أنّ الصور السلبية التي تكتنف حياة المسلمين اليوم سواء ما تعلق منها بنزعات التشدد والغلو أو ارتبط بحركات الإرهاب والعنف الديني والسياسي أو نجم عن التصرفات السيئة والمثيرة للانتقاد التي تصدر عن بعض الأفراد والمجموعات المنتسبة إلى الإسلام والتي تقيم في الغرب أو تزور مجتمعاته في رحلات سياحية أو أعمال تجارية.

ويدخل في هذا الإطار أيضاً ما يمكن أن نطلق عليه الغياب شبه الكامل للعمل الثقافي والإعلامي الإسلامي في المجتمعات الغربية سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي. وقد أدى هذا الفراغ الكبير إلى إتاحة الفرصة لوسائل الإعلام الغربي لمواصلة عملها في إنتاج

---

(١) انظر: بول فندلي: من يجرؤ على الكلام (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٧ م) ص ٤٨٣.

الصور المشوهة عن الإسلام دون رقيب أو حسيب. كما أن ذلك الغياب الخطير للعمل الثقافي والإعلامي الإسلامي في الغرب أضعف كثيراً من جهود أولئك الذين يريدون تصحيح الصورة المشوهة أو مواجهتها عن طريق تقديم المعلومات الصحيحة وتوفير المواد البديلة.

وفي رأينا أن كل هذه العوامل التي ذكرت سابقاً يمكن توظيفها مجتمعة في محاولتنا لتفسير ظاهرة التشويه الإعلامي الغربي للإسلام. ومن الخطأ أن يقتصر الباحث على عامل واحد أو عاملين لتفسير هذه الظاهرة، فهي من العمق والامتداد والتنوع ما يجعلها تستعصي على التفسير الأحادي. إنها ـ حقاً ـ ظاهرة متعددة التفسيرات متشابكة العوامل متداخلة الأبعاد. ولكن يمكننا القول: إنّ ما تنتجه هذه الظاهرة يؤلف ـ في النهاية ـ نمطاً معرفياً بالغ التعقيد لا يمكن تغييره بسهولة ويسر، بل يحتاج ذلك إلى جهود عظيمة ومتواصلة قد تستغرق عقوداً من الزمان وأجيالاً من الناس.

هل من أمل؟

ومع اعترافنا بصعوبة التغيير فإننا لا نجد مفراً من المطالبة بخوض غمار هذه التجربة المضنية بدأب وصبر وطول بال، مع وضوح في الرؤية واتقان للتخطيط وإحسان في التنفيذ. أما مسوغنا في المطالبة بضرورة التغيير فيستند إلى ثلاثة أمور، أولها أننا أمة ذات رسالة عالمية، فرسولنا إنما بعث [رحمة للعالمين] والتبشير بالإسلام والدعوة إليه وتعريف العالم به يتطلب وجود مناخ نفسي وثقافي ملائم يتسم بشيوع روح التفاهم والتفاعل لا روح التباغض والتصادم. ولا شك أن الصورة المشوهة عن للإسلام تصدّ الناس عن الدين الحق وتصنع حاجزاً سميكاً بينهم وبين معرفته وتفهمه وإدراك محاسنه.

ولم تَعُد علاقتنا بمجتمعات الغرب ـ كما كانت في الماضي ـ علاقة انفصال جغرافي وسياسي بل «إن الإسلام موجود في الغرب كما أن الغرب موجود في الإسلام» ـ كما يقول عالم الاجتماع الفرنسي (جيل كيبيل) المهتم بالشؤون الإسلامية ـ «فمع نهاية الثمانينات أصبحنا ملتزمين بالعيش معاً. إن بشكل نزاع أو بشكل سلمي. فالحدود لم يعد لها المعنى ذاته الذي كان لها في السابق، إن كانت حدود الدول أو الحدود الرمزية».

أما الغرب فحاضر في العالم الإسلامي أكثر من أي وقت مضى سابقاً كانت الحدود تسمح بمنع مرور المعلومات وهذا لا يزال صحيحاً بالنسبة للمكتوب. لكن التلفزيون، من خلال الأقمار الصناعية يسمح بمرور المعلومات التي هي في معظمها من أصول مصادر وتركيبات غربية» وفي الماضي كانت هناك حدود نسبية بين الإسلام وغيره. إلا أن حدود دار الإسلام امتدت اليوم إلى معظم المناطق التي يسكن فيها مسلمون خارج نطاق العالم الإسلامي. وفي الماضي كانت رؤية الغرب إلى المسلمين هي رؤية «الآخر» لأنهم كانوا بعيدين. أما اليوم فإن المسلمين يعيشون في الغرب نفسه[1].

ولذلك فإننا نتفق مع زين العابدين الركابي في ربطه بين أمن العالم الإسلامي والتحدي الإعلامي حيث يرى أن «القوة الإعلامية» ذات ارتباط وثيق بـ «الأمن» السياسي والاستراتيجي والفكري والحضاري للأمة. ويقول: «إنه مما يضرب أمن العالم الإسلامي» في الصميم، بل في مقتل: أن تتصور دولة إسلامية أو تتصور أقلية أو جالية إسلامية

(١) انظر: «المقابلة التي أجرتها جريدة «الحياة» مع (كيبيل) في العدد ١١٦٠٢ بتاريخ ١٩٩٤/١١/٢٣ م.

أن الإعلام «مجرد» كلام لا يلبث أثره أن يتبدد ويمّحي، فلا خوف منه ـ من ثم ـ في حاضر ولا مستقبل. إن هذا التصور يناقض «الأمن الوطني» لكل دولة مسلمة، ويناقض «الأمن المشترك» للعالم الإسلامي كله. فمثلاً إن شعارات ومقولات: المسلمون همج، المسلمون مخربون. المسلمون أعداء للحضارة. المسلمون ارهابيون. المسلمون لا يتعايشون مع غيرهم. هذه المقولات حين توظف في سياقات وأشكال إعلامية متنوعة، متقنة الإخراج، متتابعة الدق والنفخ، فإنه سيكون لها تأثيرها ووقعها الشديد الضرر على «أمن العالم الإسلامي»... «فإذا رسخت هذه المفاهيم عبر وسائل الإعلام فإن الغرب، بل العالم المتأثر بهذا الإعلام، سيعامل المسلمين ـ بوجه عام ـ من منظور التوتر والكراهية، وعدم الثقة، وسوء التعامل. وليس هناك عاقل ـ ذو حس أمني ـ ينفي أن هذه النقائص المسقطة على المسلمين تضرّ بأمنهم»[1].

ويتجسد الأمر الثالث في بعض بشائر التفاؤل والأمل التي بدأت تتفتح في المجتمعات الغربية، فقد اتسعت دوائر الاهتمام الرسمي والمؤسسي والشعبي في تلك المجتمعات ـ وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا ـ بدراسة الإسلام والتعرف عليه والاستعداد لتصحيح المفاهيم المغلوطة عنه. ويعترف كثير من الناشرين للكتب العربية أو التي تهتم بالعالم العربي والإسلامي في أمريكا بأن الأحداث الأخيرة في منطقة الشرق الأوسط قد أسهمت في ازدياد الإقبال على شراء الكتب المتعلقة بتلك المنطقة. وبالرغم من أن نسبة معتبرة من المقبلين على شراء تلك الكتب كانوا يميلون إلى الكتب ذات الطابع السياسي،

---

(١) زين العابدين الركابي: «امن العالم الإسلامي والتحدي الإعلامي» جريدة «الشرق الأوسط» العدد ٥٢٢٣.

وبخاصة أثناء وبعد حرب الخليج، إلاّ أنّ تصاعد الاهتمام بما يتعلق بالشرق الأوسط يُعدّ مؤشراً إيجابياً يمكن استثماره في تصحيح التصورات المغلوطة المنتشرة بين القراء حول الإسلام والمسلمين[1].

ومن التجارب الناجحة في توفير المعلومات لطلاب المدارس الأمريكية ما قامت به جامعة شيكاغو قبل سنوات قليلة حيث أعدت حملة تعليمية أسمتها «الوصول إلى المجتمع» تتضمن ١٢ برنامجاً دراسياً نفذتها في أنحاء وسط الغرب الأمريكي. ويقوم البرنامج على اجتماع مدرسي المدارس الثانوية بممثلي المجتمعات المختلفة والاستماع إلى الأساتذة المتخصصين في شؤون الشرق العربي وأفاد أحد مسؤولي البرنامج بأنهم تلقوا مكالمات عديدة تطلب امداد أصحابها بالمواد والكتب لكي يستفيدوا منها[2].

ونضيف إلى ذلك بعض الإشارات المشجعة التي أفصحت عنها استفتاءات معتبرة لرصد توجهات الجمهور الأمريكي تجاه الإسلام والمسلمين. ففي استطلاع للرأي أجرته صحيفة (لوس أنجلس تايمز) ونشرت نتائجه في عددها ليوم ١٩٩٣/٤/٦ م أبدى ٢٢٪ من الذين استطلعت آراؤهم ارتياحهم للسماع عن الإسلام كدين، بينما أبدى ١٤٪ فقط عدم ارتياحهم لذلك. واعتبر ٣٧٪ منهم أن الإسلام ليس مصدر تهديد وخطر على المصالح الأمريكية وأمنها وحلفائها الغربيين، بينما أعتبر ٢٩٪ منهم أنه مصدر خطر.

وحول ما يخطر ببال الواحد منخم عند سماع كلمة «الإسلام» قال ١٦٪ أنهم يتذكرون الشرق الأوسط وذكر ٦٪ فقط أنم يتذكرون العنف

---

(١) فريد الخطيب: «الأمريكيون يقبلون على كتب الشرق الأوسط» مجلة المجال، ص ٢٥.
(٢) محمد حقي: «لقاء مع ناشر ترجمات القارات الثلاث» المصدر السابق، ص ٣٢.

والإرهاب و٣٪ يتذكرون إيران. وإذا كان الاستطلاع السابق قد أجري قبل حادثة تفجير مركز التجارة العالمي في نيويورك فإن استطلاعاً آخر أعدته (مجموعة جون زغبي الدولية) لمجلة «الوسط» يعطينا[1] مؤشرات أخرى ف ٤٣٪ من الذين استطلعت آراؤهم يرون أن المسلمين متعصبون و٣٣٪ منهم يعتقدون أن الغالبية العظمى من المسلمين تكره الإرهاب (غير الموافقين ١٧٪) و٤٨٪ منهم يقولون أنه يجب السماح للنساء المسلمات بالتحجب في العمل إذا رغبن في ذلك (المعارضون ١٪) ويرى ٥٤,٦٪ منهم أن سلسلة الأحداث التي أعقبت انفجار المركز التجاري الدولي لن يكون لها أثر سلبي على رأيهم في المسلمين.

ومع أن مؤشرات الاستطلاعين ليست سيئة في إجمالها، إلا أن الدلالة الأكثر أهمية في نتائج الاستطلاعين تكمن في الشريحة الثالثة التي قالت إنها لا رأي لها أو غير متأكدة من رأيها. ففي الاستطلاع الأول أعرب ٦٤٪ من الذين استطلعت آراؤهم عن عدم معرفة انطباعهم حول الإسلام وأنهم لا يهتمون. وذكر ٣٤٪ منهم أنهم لا يعرفون عما إذا كان الإسلام مصدر تهديد وخطر لهم أم لا. وفي الإجابة على السؤال عما يتذكرون أو يخطر ببالهم عند سماع كلمة «الإسلام» قال ٣٧٪ منهم أنهم لا يعرفون أو لا يتذكرون شيئاً.

وفي استطلاع مجلة «الوسط» قال ٣٣٪ من المستطلع آراؤهم بأنهم غير متأكدين عما إذا كان المسلمون متعصبين أم لا. أفاد ٤٩٪ منهم بعدم تأكدهم من أن المسلمين يكرهون الإرهاب. وتوضح هذه النتائج أن قطاعاً كبيراً من الجمهور الأمريكي لا يعرف شيئاً عن الإسلام

---

(١) انظر: مجلة «الوسط» (لندن) العدد ٦٣، بتاريخ ١٩٩٣/٤/١٢ م.

ويجهل كثيراً مما يتلعق به ومن ثم فإن هؤلاء لم يكونوا بعد آراء نهائية عن ديننا وربما يصح أن نقول ـ بشيء من التحفظ ـ إنهم لم يتأثرو حتى الآن بالحملة المغرضة التي تشنها وسائل الإعلام على المسلمين. ونحسب أن هذه النتائج تفتح نافذة من الأمل وتشجعنا على السعي الحثيث لاستثمار هذه الفرصة السانحة حيت تتزايد الرغبة في المعرفة من جهة وحيث تخلو عقول الكثيرين من الآراء النمطية المسبقة من جهة أخرى.

وقد أسفرت بعض التجارب العملية التي نفذت في الولايات المتحدة لتصحيح الصور المشوهة عن الإسلام عن نتائج مشجعة، مما يغري بمواصلة الجهود على نحو أفضل تخطيطاً وتنفيذاً فقد نجحت ـ مثلاً ـ «لجنة الأمريكيين العرب لمكافحة التمييز» في الغاء فيلم تدريبي أنتجته البحرية الأمريكية يصور المسلمين على أنهم الخطر الإرهابي الرئيسي على الولايات المتحدة.

كما وافقت إدارة متحف (سميثسونيان) الشهير في واشنطن على طلب اللجنة بإعادة النظر في معرض «العالم الإسلامي» الذي يقام في المتحف منذ ٣٠ عاماً. فقد رأت اللجنة أن المعرض يتضمن الكثير من المغالطات ويعطي ـ بالتالي ـ انطباعاً خاطئاً عن الإسلام. واحتجت اللجنة أيضاً على صورة دعائية لنوع من أنواع العطور نشرت في مجلة أمريكية فيها إساءة للمرأة المحجبة، فتلقت اعتذاراً خطياً من المجلة. وتعهدت إدارتها بأخذ النقاط التي آثارتها اللجنة في الحسبان فيما ستنشره من صور دعائية مستقبلاً[1].

---

(١) انظر: عبد القادر طاش: «هل من أمل في تغيير صورتنا في الغرب؟ «جريدة المسلمون» العدد ٤٣٤ بتاريخ ١٩٩٣/٥/٢٨ م.

ماذا نعمل؟

إنّ ما ينبغي عمله لتصحيح الصورة المشوهة للإسلام والمسلمين في الغرب ميدان فسيح وواسع. ومما لا ريب فيه أن قصورنا الذاتي قد أحدث فراغاً كبيراً نفذ من خلاله أعداؤنا لتحقيق مآربهم. ومن الحق أيضاً أن يتحمل الغربيون نصيباً من المسؤولية فيما وصلت إليه الأمور. ولذلك فإن جهود التصحيح لا بد أن تأتي من الطرفين: الإسلامي والغربي. ولا بد أن يدرك العقلاء من الطرفين أن من مصلحة المسلمين والغرب حقاً أن تبنى علاقتهما على التفاهم والتعاون، وألاّ ينساقوا وراء أولئك الذين يريدون سواءً من المسلمين أو الغربيين ـ تأجيج نيران الصراع بين الطرفين تحت دعاوى أن «الشرق شرق والغرب غرب ولا يمكن أن يلتقيا» أو أن «صدام الحضارات» حتمي ولا مفر منه أو غير ذلك من الدعاوى.

ولا نحسب أن التغيير النفسي هو نقطة البداية الصحيحة في عملية التصحيح. فإذا كان مطلوباً من المسلمين أن يكبحوا جماح نزعات الغلو والتطرف الفكري التي تطال الغرب وتخيفه وكذلك حوادث العنف والإرهاب التي يشكو منها الغرب ويعاني منها المسلمون أنفسهم أن يغيّر الغربيون نمط تفكيرهم القديم ونظرتهم النفسية العدائية للمسلمين، وأن يطأطئوا من شعورهم الدائم بالتفوق والاستعلاء العنصري والثقافي، وكذلك عليهم أن يقمعوا في سياسييّهم وامبرياليهم نزعات العدوان على الآخرين والهيمنة عليهم بالقوة.

أما في الميدان العملي لتغيير الصورة فينبغي أن يتم التصحيح عبر بعدين متكاملين، أحدهما تفنيد الأغاليط والمعلومات والآراء الخاطئة، ومحاصرة المواد التعليمية والثقافية والإعلامية التي تسيء إلى الإسلام

أو تشوه صورته ومحاولة التخلص منها سواء بالإتصال بمروجي تلك المعلومات والآراء وأصحاب هذه المواد والتعاون معهم على تصحيحها أو بممارسة الضغوط والاحتجاجات التي يمكن أن تسفر عن نتائج جيدة ومفيدة.

ويتمثل البعد الآخر فيما يمكن أن نسميه بـ «صناعة الصورة البديلة» إذ لا يكفي أن تقتصر جهود التصحيح على تفنيد الأغاليط، بل لا بد أن يقترن ذلك بتوفير المعلومات الصحيحة وتقديم الصورة البديلة. وكما «صنعت» الصورة المشوهة وفق منهج واضح وخطط متقنة، فإن «صناعة» الصورة البديلة تستدعي وجود استراتيجية إسلامية متكاملة تحدد الأهداف بدقة وترسم بوضوح المناهج التي ستبنى عليها جهود التصحيح بالإضافة إلى صياغة الخطوط العريضة لحركة التصحيح في الواقع العملي.

ويتضح من ضخامة هذا العمل الحضاري وحيويته وأهميته أن مسؤوليته لا تقع على جهة واحدة أو تنحصر في حيّز ضيق. ومن هنا تتأكد ضرورة تعاون المسلمين فيما بينهم أفراداً ومؤسسات وهيئات وحكومات. كما تتأكد أهمية استقطاب مجموعات من الغربيين المتحمسين لهذا العمل سواء أكانوا مؤسسات وهيئات أم أفراداً ومجموعات.

وفي ضوء تلك الاستراتيجية الإسلامية المقترحة يمكننا أن نتصور جهود التصحيح والتغيير ـ بشقيها المتعلق بالتفنيد والمتعلق بتقديم البديل ـ ضمن ثلاثة محاور رئيسية هي:

- المحور التعليمي المتخصص.
- المحور التثقيفي العام.
- المحور الإعلامي الجماهيري.

ويستند المحور التعليمي المتخصص إلى أهمية تصحيح المعلومات

الخاطئة أو الناقصة أو المشوهة التي تحتوي عليها المناهج الدراسية في المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعية في المجتمعات الغربية، إذ تفيد نتائج العديد من البحوث والدراسات التي راجعت تلك المناهج في عدد من الدول الغربية، أن كثيراً من تلك المناهج تعرض صوراً مزيفة للإسلام والمسلمين. وقد أورد (آصف حسين) في كتابه «صراع الغرب مع الإسلام» الذي صدر عام ١٩٩٠ م خلاصة وافية لنتائج عدد من الدراسات المسيحية للمناهج الدراسية في كل من الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وألمانيا الغربية، والمملكة المتحدة[١].

وقد أدركت بعض المؤسسات الإسلامية أهمية تصحيح المناهج الدراسية فخاضت تجارب آتت نتائج مثمرة. ويذكر الدكتور طه جابر العلواني ـ مدير المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن ـ أن المعهد قام عام ١٩٨٤ م بدعوة مئة من أساتذة العلوم الاجتماعية وأثبت لهم الأخطاء العلمية الفادحة في منهج التاريخ الذي يقومون بتدريسه. وكانت النتيجة أن قاموا بتصحيح تلك الأخطاء وتغييرها على الفور[٢].

واستجابت إدارة التعليم العام في ولاية فرجينيا الأمريكية لطلب مركز آدم الإسلامي بواشنطن والمتضمن تدريس منهج دراسي إسلامي في المدارس. وجاءت هذه الاستجابة بعد أن قام وفد من المسلمين بزيارة احتجاجية لإدارة التعليم أبدوا خلالها اعتراضهم على إدراج قصة «شهرزاد» كمادة إسلامية في منهج الصف الخامس الابتدائي بمدارس الولاية.

---

(١) انظر: الفصل الخامس من كتاب أصف حسين باللغة الإنجليزية:
Asaf hussain, Western Conflict with Islam: Survey Of Anti-Islamic Traduction, (Leicester, England: Volcano Books, 1990), PP. 40 -48.

(٢) انظر: عبد القادر طاش: أمريكا والإسلام تعايش أم تصادم (الشركة السعودية للأبحاث والنشر، ١٩٩٣) ص ٣٠.

ويسعى المركز الآن إلى توفير الإمكانات المادية لإعداد وطباعة المنهج الإسلامي البديل وتقديمه لإدراة التعليم[1].

ومن الجهود المقدرة ما قامت به «الاكاديمية الإسلامية» في كولونيا الفرنسية من إصدار كتاب «الإسلام للمعلمين» الذي وضعه الأب (روجيه فورليه) ليسترشد به أساتذة ومعلمو المدارس الفرنسية. وهو كتاب ـ كما يقول فيه بلال عبد الهادي ـ «يتسم بالموضوعية في عرضه للفكر الإسلامي» وقد عمد المؤلف إلى قراءة فاحصة للكتب التاريخية والجغرافية المقررة في المدارس الفرنسية ثم قدم معلومات بديلة حول التاريخ الإسلامي استناداً إلى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وكتب الشريعة. وحاول أيضاً كشف الأغاليط والأخطاء المرتجلة وإعطاء تعريفات أخرى أو بديلة للمفاهيم الإسلامية المتداولة في الكتب المدرسية بغية تحقيق فهم أعمق وأكثر دقة لها[2].

ويندرج في إطار جذب الغربيين إلى حسن تفهم الإسلام وتصحيح المعلومات المغلوطة عنه السعي نحو إقناع السلطات التعليمية في الغرب بضرورة إدخال منهج التعليم الإسلامي إلى المدارس العامة. ونذكر في هذا السياق الخطوة البريطانية التي سيبدأ في تطبيقها من العام الدراسي الحالي ١٩٩٥ م وفقاً لمنهاج تعليمي جديد يسمح بتدريس مباديء الدين الإسلامي لتلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية إلى جانب المسيحية واليهودية. وبموجب المنهاج الجديد يتوجب على تلاميذ المدارس البريطانية في أية مرحلة من مراحلهم التعليمية بين سني السابعة والرابعة عشرة دراسة دينين غير مسيحيين بشكل معمق[3].

---

(١) انظر: جريدة المدينة المنورة (جدة) العدد ١١٥٦٢ بتاريخ ٩٤/١١/٢٦ م.
(٢) انظر: صحيفة «صوت الكويت» (لندن) بتاريخ ١٩٩٢/١٠/٢١ م.
(٣) انظر: جريدة «الشرق الأوسط» بتاريخ ١٩٩٤/٧/٤ م.

وإذا كانت المناهج الدراسية في المدارس العامة هي التي تصنع عقول الأطفال والناشئة في المجتمعات الغربية وتشكّل رؤاهم عن الإسلام والمسلمين، فإن معاهد ومراكز الدراسات الإسلامية والعربية وكذلك مراكز الدراسات الشرقية وشؤون الشرق الأوسط تقوم بدور فاعل في تكوين عقول المتخصصين والخبراء الذين تعتمد عليهم وسائل الإعلام ومؤسسات صناعة القرار السياسي والاقتصادي والثقافي في المجتمعات الغربية. لذلك فإن من الضروري العناية بهذه المراكز والعمل معها على تصحيح المعلومات الملغوطة عن الإسلام، وكذلك المساهمة في تخريج أجيال جديدة من المتخصصين والخبراء يتمتعون بالفهم الموضوعي للإسلام والنظرة المنصفة للمسلمين.

وقد شهدت السنوات القليلة الماضية شيئاً من ذلك الاهتمام في عدد من الأقطار الغربية، ففي الولايات المتحدة الأمريكية يتصاعد هذا الاهتمام على نحو مبشّر بنتائج طيبة في المستقبل القريب. ففي جامعة (هارفارد) العريقة تأسس مؤخراً كرسي الدراسات الإسلامية بمساهمة سخية من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ودعم من بعض المؤسسات الأمريكية الخاصة ذات العلاقة بالمملكة العربية السعودية مثل (ماكدونال دوغلاس). ويهدف برنامج هذا الكرسي إلى التعريف بجوانب الثقافة والحضارة الإسلامية في المجتمع الأمريكي. ويقول (جون ماكدونال) ـ رئيس مجلس إدارة (ماكدونال دوغلاس) ـ بأن هدف مؤسسته من التبرع لهذا المشروع «التشجيع على تفهم أفضل للثقافة العربية والإسلامية داخل الولايات المتحدة». ويضيف قائلاً: «إننا اليوم في حاجة ماسة لمثل هذا التفهم، ففي داخل الولايات المتحدة وسائر البلدان الغربية هناك تقدير ضئيل جداً ـ والكثير من سوء الفهم ـ

للثقافة الإسلامية». «ولا شك أن إقامة مركز للدراسات القانونية الإسلامية في أعرق مدرسة للقانون بالولايات المتحدة يمثل خطوة جبارة إلى الأمام»[1].

وفي جامعة (جورج تاون) العريقة في واشنطن تأسس مركز جديد للتفاهم الإسلامي المسيحي منذ بداية العام الجامعي ١٩٩٤ م. ويرأس هذا المركز البروفسور (جون اسبوسيتو) وهو أستاذ متخصص في الشؤون الإسلامية وكان رئيساً لـ «رابطة شمال أمريكا لدراسات الشرق الأوسط» ورئيساً لـ «المجلس الأمريكي لدراسة المجتمعات الإسلامية» كما كان مستشاراً لدى وزارة الخارجية الأمريكية. وله عدة كتب عن الإسلام منها: «الإسلام: الصراط المستقيم» و«التهديد الإسلامي: حقيقة أم أسطورة؟» ويرأس (اسبوسيتو) أيضاً طاقم تحرير دائرة المعارف الضخمة المسماة بـ «العالم الإسلامي الجديد» والذي ستنشره جامعة اكسفورد العريقة قريباً.

ويرى (اسبوسيتو) أن المركز سيقول للمسيحيين واليهود في الغرب شيئين: «الأول هو أن المسلمين هم نحن. هم جزء من الولايات المتحدة، وليسوا غرباء عنا، وإننا لم نعد نمثل ثقافة مسيحية ـ يهودية فقط، بل أصبحنا نمثل ثقافة مسيحية ـ يهودية ـ إسلامية. والشيء الآخر هو أنه يجب وقف الآراء المسبقة والنظر إلى الإسلام والمسلمين من منظور تحدده أحداث سياسية أو الجمع بين الإرهاب والمسلمين. أقول للمسيحيين واليهود: إن الإسلام هو دين عالمي متعدد الأبعاد ويمتد من آسيا إلى أفريقيا»[2].

---

(١) انظر: جريدة «عكاظ» (جدة) بتاريخ ٩٤/٦/١٢ م.
(٢) انظر: مجلة المجال (واشنطن)، العدد ٢٧٨ يونيو ١٩٩٤، ص ٤.

ويعدّ إنشاء مؤسسات تعليمية إسلامية متخصصة في بلاد الغرب رافداً من الروافد المهمة التي يمكن أن تسهم في تصحيح الصورة المغلوطة وتقديم صورة موضوعية بديلة من خلال ما تقوم به مثل هذه المعاهد من نشاطات وما تقدمه من برامج تستقطب اهتمام الباحثين والدارسين، ومن خلال ما تستثمره من علاقاتها وصلاتها العلمية بالمعاهد والمراكز الشبيهة في تلك المجتمعات.

ومن هذه المؤسسات في الولايات المتحدة ـ مثلاً ـ «معهد العلوم الإسلامية والعربية» التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الذي بدأ نشاطه المنتظم منذ عام ١٩٩٠ م. فبالإضافة إلى ما يقدمه المعهد من برامج دراسية لأبناء المسلمين تستهدف تخريج علماء ومتخصصين إسلاميين يسهمون في المحافظة على الهوية الإسلامية للجاليات المسلمة هناك، يقوم المعهد بتقديم دورات دراسية في العلوم الإسلامية واللغة العربية لغير المسلمين. ونأمل أن يقوم المعهد بتوفير الكثير من المعلومات والمواد التعليمية الإسلامية للراغبين في الاستفادة منها، وأن يوثق صلاته وعلاقاته العلمية بمراكز البحوث والدراسات المشابهة حتى يؤدي الدور المنوط به على الوجه الأكمل.

التثقيف العام والإعلام الجماهيري

أما على المحور التثقيفي العام فإن توفير شبكات للمعلومات الإسلامية، وإنشاء مكتبات تضم المراجع والمصادر الأساسية للدين الإسلامي، وإقامة معارض متنوعة تجسد معالم الحضارة الإسلامية، وتنظيم مؤتمرات وندوات متخصصة لعرض وجهات النظر الإسلامية في العديد من القضايا والمشكلات التي تواجه العالم اليوم، كل ذلك ـ ولا ريب ـ مما يسهم في توسع دوائر الإهتمام بالإسلام ويحفز على تكوين صورة موضوعية

عن أوضاع المسلمين ويوفّر فرصاً أوسع لاطلاع الغربيين على الوجه الحقيقي للإسلام.

ويقوم «المجلس الإسلامي الأمريكي» في واشنطن بنشاط حيوي في ميدان التثقيف العام في المجتمع الأمريكي. وقد تأسس المجلس عام ١٩٩٠ م وجاء إنشاؤه تتويجاً لجهود سابقة قام بها المسلمون الأمريكيون من أصول أفريقية عندما أقاموا أول مؤتمر لتنمية الوعي السياسي لدى مسلمي أمريكا وزيادة فاعليتهم وتأثيرهم الثقافي والسياسي في المجتمع الأمريكي عبر القنوات التشريعية والسياسية. وللمجلس صلات طيبة مع بعض السياسيين الأمريكيين، وله علاقات جيدة مع بعض المؤسسات الإعلامية والصحفيين.

ويقوم المجلس بتدريب المسلمين على كيفية الإسهام في تصحيح الصور السلبية عن الإسلام والمسلمين في منابر التثقيف والتوجيه العام كالمؤسسات السياسية ووسائل الإعلام ونحوها. فمن منشورات المجلس ـ مثلاً ـ «كيف تتعامل مع الكونجرس» «كيف تتصرف في الأحداث التي تتعلق بالمسلمين» «كيف تتعامل مع وسائل الإعلام وتجعل صوتك مسموعاً».

وفي لندن تأسس «المجلس الإسلامي العالمي» في شهر ديسمبر ١٩٨٩ م بوصفه هيئة ذات طبيعة عالمية تهدف إلى «خدمة الإسلام على مستوى عالمي، ومجاهدة الأخطار والأفكار المعادية له» ويطمح المجلس إلى «تكوين رأي عام إسلامي قوي ورشيد حول القضايا العالمية المهمة»، ويتطلع إلى «بحث القضايا الإسلامية المعاصرة وإيجاد الحلول المناسبة لها» ويحدد المجلس ـ في نظامه الأساسي ـ بعض الوسائل التي يستعين بها لتحقيق أهدافه، ومن أهمها: تنظيم المؤتمرات والندوات والدورات العلمية،

وإنشاء مراكز ووحدات للدراسة والبحث، وإصدار الصحف والمجلات والكتب وإعداد البرامج الإذاعية والتلفازية، ورصد ما يُكتب ويُقال عن الإسلام والمسلمين وغير ذلك من الوسائل. وها هو المجلس يولي قضية الصورة المشوهة للإسلام في الغرب اهتمامه الجاد بإقامة هذه الندوة التي يشارك فيها نخبة من المتخصصين والمهتمين. ونأمل أن تكون هذه الندوة نقطة البداية التي ستليها جهود ونشاطات أخرى على المستوى الدولي كما هو شعار هذا المجلس وطبيعته التي أشار إليها نظامه الأساسي[1].

وأعلن مؤخراً في لندن أن نخبة من الدعاة والمشتغلين بالشؤون الإسلامية قد أسسوا ما أسموه بـ «المجلس العالمي للمعلومات الإسلامية» وذكر الإعلان أن هدف المجلس هو «صدّ التيار العالمي المتزايد لإثارة الشبهات الباطلة ضد الإسلام وتشويه صورته، وذلك عن طريق نشر المعلومات الصحيحة عن الدين الحنيف»[2].

وقد تزايدت في الآونة الأخيرة التصريحات والإشارات الحسنة عن الإسلام الصادرة من شخصيات فكرية وسياسية ذات وزن في المجتمعات الغربية مثل المحاضرة البليغة التي ألقاها ولي العهد البريطاني (الأمير تشارلز) في جامعة (أكسفورد) في شهر نوفمبر ١٩٩٣ م. وكانت المحاضرة عرضاً منصفاً وجديراً بالتقدير للإسلام ودوره في بناء الحضارة الحديثة. وقال فيها «لقد ساعد الإسلام على تكوين أوربا المعاصرة فهو جزء من تراثنا وليس شيئاً مستقلاً بعيداً عنا.

---

(١) انظر: النظام الأساسي للمجلس الإسلامي العالمي ـ لندن ـ.
(٢) انظر: مجلة «فجر الإسلام» (بيروت) العدد ٤ ديسمبر ١٩٩٤ م.

وأكثر من هذا، فالاسلام يستطيع أن يعلمنا اليوم كيف نفهم وكيف نعيش في عالمنا المسيحي الذي يفتقر إلى المسيحية التي فقدها»[1].

وقام نائب الرئيس الأمريكي (ألبرت غور) بزيارة للمركز الإسلامي في واشنطن في شهر يونيو ١٩٩٤ م لتهنئة المسلمين بالعام الهجري الجديد. وأكد هناك تقدير الولايات المتحدة واحترامها «للدين الإسلامي العظيم وما يدعو إليه من مباديء وقيم سامية» وتعدّ هذه المبادرة هي الثانية من نوعها بعد بادرة الرئيس الأمريكي الأسبق (ايزنهاور) عام ١٩٥٧ م.

وفي شهر يونيو من العام ١٩٩١ م أدلى المساعد السابق لوزير الخارجية الأمريكي لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا (ادوراد ديجيرجيان) بتصريح هام حول علاقة أمريكا بالإسلام أشار فيه إلى أن «الحرب الباردة لا يجري استبدالها بمنافسة جديدة بين الإسلام والغرب» وأضاف قائلاً: «الأمركيون يعترفون بالإسلام على أنه أحد أعظم أديان العالم إذ أن له أتباعه في كل قارة، ويؤمن به ملايين المواطنين في الولايات المتحدة، ونحن كغربيين نعترف بالإسلام بصفته قوة حضارية تاريخية من بين الكثير من القوى التي أثرت في ثقافتنا وأغنتها».

وتوالت تصريحات أخرى لمسؤولين غربيين مثل: مساعد وزير الخارجية الأمريكي لشؤون الشرق الأدنى (بيليترو) ومستشار الرئيس الأمريكي لشؤون الأمن القومي (أنتوني ليك)[2] والسفير البريطاني في القاهرة (كريستوفر لونج) الذي صرح بأن هناك تجاهلاً للدِّين المستحق

---

(١) اقرأ الترجمة الكاملة للمحاضرة في جريدة «الشرق الأوسط» العددين ٥٤٥٧ و ٥٤٥٨ بتاريخ ٦، ٧ نوفمبر ١٩٩٣ م.

(٢) انظر: نصوص التصريحات في:
(The United States of America and the Islamic World)
الذي طبعه فرع دائرة الخدمات الإعلامية بالسفارة الأمريكية بالرياض.

للعالم الإسلامي على الحضارة الأوربية وسوء تقدير لمساهمته الإيجابية. وأضاف أن بريطانيا تعتزم إقامة معرض في مصر ودول أخرى بالمنطقة عن الإسلام في بريطانيا معرباً عن أمله في أن تساعد مثل هذه المبادرات في إقامة علاقات أوثق بين الإسلام والغرب[1].

إنَّ مثل هذه التصريحات والإشارات الحسنة التي تعترف للإسلام بدوره الحضاري والثقافي وتحاول تخفيف حدة الحملات الجائرة التي تستهدف تحقيره والنيل من قيمه وعطاءاته يحتاج إلى التفات جاد واستثمار واع وذلك في سبيل توظيفه لخدمة هدفنا في تصحيح الصور المشوهة عن الإسلام في الغرب. ومن أسف أن نلاحظ أنّ كثيراً من هذه المبادرات الشجاعة والإيجابية لم تلق من المسلمين الإهتمام اللائق بها، وبذلك فوّت المسلمون على أنفسهم فرصة سانحة كان يمكن أن تكون لها آثار طيبة فيما لو أحسن استثمارها وتوظيفها.

ومما يمكن أن يندرج في إطار المحاولات المبذولة لتصحيح الصور المشوهة عن الإسلام إقامة المؤتمرات المشتركة للحوار بين الغرب والإسلام. ومن شواهد ذلك ما ذكرته الأنباء من أن السويد تتهيأ للمرة الأولى في تاريخها للقيام بدور بارز في تنشيط الحوار الإسلامي ـ الأوربي. ونشرت جريدة الحياة اللندنية في ١٩٩٤/١٢/٣ م أن وزارة الخارجية السويدية تجري اتصالات مكثفة مع العديد من الجهات الأوربية والإسلامية استعداداً لعقد مؤتمر إسلامي كبير في «استوكهولم» يشارك فيه مفكرون وقادة من الحركات والمنظمات الإسلامية في أوربا من الدرجة الأولى وبعض المفكرين والقادة الإسلاميين من خارج

---

(١) انظر جريدة «عكاظ» بتاريخ ١٩٩٤/٧/١ م.

أوربا، وممثلون عن الأحزاب والقوى السياسية الرئيسية في أوربا وبعض المفكرين الأوربيين المعنيين بالإسلام.

ويستهدف المؤتمر تهيئة فرصة للحوار بين أوربا والإسلام، لاسيما الإسلام الأوروبي الذي لم يعد في الإمكان تجاهله لا من حيث العدد ولا من حيث القوة والفعالية بعدما بلغ عدد المسلمين في دول الاتحاد الأوربي ـ حسب بعض التقديرات ـ أكثر من عشرين مليوناً يمثلون ٦٪ من مجموع السكان. وقد يسفر المؤتمر عن تشكيل لجان دائمة أو هيئات متخصصة لمتابعة التوصيات وتعميق الحوار ووضع قواعد مستقبلية للتعاون والتفاعل ومعالجة المشكلات[١].

ولا بد أن يحتل النشاط الإسلامي على المحور الإعلامي موقعاً مميزاً ومهماً في جهودنا لتصحيح الصورة المشوهة عن الإسلام في الغرب، وذلك لما لوسائل الإعلام الجماهيرية من نفوذ واسع وانتشار كبير وتأثير بالغ الأهمية في المجتمعات الغربية. وإذا كان بعض الجهود المحدودة في الميدان الإعلامي قد بدأ يتبلور في الآونة الأخيرة إلاّ أنّ الملاحظ أن الغياب الإسلامي في مجال الإعلام الدولي يكاد يكون تاماً. ويشكو المحرر الأمريكي (ديفيد لامب) من صحيفة (لوس انجلس تايمز) من ذلك إذ يعتقد ـ محقاً ـ بأن العرب والمسلمين يضيعون جهودهم في الحديث اليومي مع بعضهم بعضاً، وفي التذمر من دور وسائل الإعلام الأمريكية في تشويه صورتهم، عوضاً من نقل هذا التذمر والامتعاض بشكل دقيق ومعلوماتي للإعلام الأمريكي[٢].

---

(١) انظر: جريدة «الحياة» (لندن) بتاريخ ١٩٩٣/١٢/٣ م.

(٢) انظر: د. فهد الطياش: «ثقوب في الإعلام الإسلامي» جريدة «الشرق الأوسط» بتاريخ ١٩٩٤/٦/١٣ م.

ولزيادة الفاعلية الإسلامية في الميدان الإعلامي في الغرب يمكننا العمل في مجالين أولهما مجال الإعلام الغربي، وثانيهما مجال الإعلام الإسلامي في الغرب. ففي مجال الإعلام الغربي لا بد من تنشيط العلاقة وتكثيف الإتصال بين المسلمين ووسائل الإعلام: أفراداً ومؤسسات. إنّ هذه العلاقة متى ما نمت ونضجت يمكن أن تسهم في تثقيف الإعلاميين الغربيين وتصحيح مفاهيمهم وتصوراتهم عن الإسلام وذلك عن طريق توفير المعلومات البديلة لهم والتعبير لهم عن الأراء الإسلامية حول القضايا والموضوعات التي تتعلق بالدين الإسلامي أو تهمّ المسلمين.

ومن جهة ثانية تنبغي العناية بتطوير وتكثيف وسائل الضغط التي يمكن للمسلمين أن يقوموا بتوظيفها لخدمة جهود التصحيح وصناعة الصورة البديلة. وتعد سياسة الضغط ـ بمختلف أساليبه المشروعة والقانونية ـ ممارسة اجتماعية طبيعية في المجتمعات الغربية. وقد رأينا النتائج الإيجابية التي أثمرت عنها بعض التجارب العملية.

ويندرج في هذا الجانب أيضاً مساهمة المسلمين بالكتابة في الصحف والمجلات بطرق متعددة مثل الكتابة في صفحات الرأي، والمساهمة في زاوية «بريد القراء» أو «رسائل إلى المحرر» لما لهذه الكتابات من أهمية في تنوير الرأي العام وتثيقفه. وكذلك المشاركة في بعض البرامج الإذاعية والتلفزيونية مثل برامج الحوار الهاتفي، ومناقشات التلفزيون حول القضايا والأحداث سواء في البرامج المشهورة منها أو البرامج الأخرى.

وكل هذه المساهمات الإعلامية من إقامة العلاقات وتوثيق الصلات مع الإعلاميين لتثقيفهم حول قضايا الإسلام والمسلمين،

إلى استخدام وسائل الضغط، إلى المساهمة بالكتابة والمشاركة الإذاعية والتلفزيونية، كل ذلك يتطلب نوعاً من التعليم والتدريب لأولئك الذين يرغبون في القيام بتلك المهمات أو يطلب منهم ذلك. وقد أعجبني اهتمام «المجلس الإسلامي الأمريكي» بمثل هذه الأمور حيث يقوم المجلس بطباعة نشرات توجيهية ترشد الفرد المسلم أو المجموعة الإسلامية إلى كيفية التعامل مع وسائل الإعلام في المجالات المذكورة.

أما في مجال الإعلام الإسلامي في الغرب فيحسن بنا أولاً أن نطالب بزيادة تنشيط مؤسسسات الإعلام الإسلامي الموجودة الآن على الساحة الإسلامية والدولية ومن أهمها: وكالة الأنباء الإسلامية، ومنظمة إذاعات الدول الإسلامية إذ أن المطلوب من هذه المؤسسات أن تسهم بانتاج المواد الصحفية والإذاعية والتلفزيونية التي يمكن الاستعانة بها واستخدامها في جهود التصحيح وصناعة الصورة البديلة. وكذلك يمكن الإفادة من الإذاعات الإسلامية الأخرى مثل الإذاعات الموجهة باللغات الأوربية من المملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية وذلك بتقوية إرسالها وتوسيع مجالات اهتمامها.

وقد طالبت دراسة نشرها المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة بالقاهرة عن «منهجية التعامل مع الأقليات المسلمة» بضرورة الاهتمام بإذاعة «نداء الإسلام» التي تبث برامجها من مكة المكرمة لتكون نواة لإذاعة إسلامية عالمية توجه خدماتها بمختلف اللغات العالمية، على أن تولى عناية خاصة بالأقليات المسلمة في أوربا وامريكا[1]. ونعتقد أن تنفيذ هذا الاقتراح ستكون له ثمرات مفيدة، فهو من جهة يوفر للمسلمين، وبخاصة في مجتمعات الأقليات، زاداً ضرورياً يعينهم على المحافظة على

(١) انظر: جريدة «الشرق الأوسط» بتاريخ ١٩٩٤/١٢/٣٠ م.

هويتهم الإسلامية في وجه التحديات التي تواجههم. ويمكن لهذه الإذاعة ـ من جهة أخرى ـ مساعدة المسلمين في تلك المجتمعات على أداء دورها المرتجى في تصحيح الصورة المشوهة للإسلام وتقديم الصورة البديلة.

ويقوم بعض المسلمين والمؤسسات الإسلامية باستئجار أوقات ومساحات للبث الإذاعي والتلفزيوني في وسائل الإعلام الغربية وذلك للتوعية الإسلامية ويمكن لمثل الأسلوب أن يخدم جهود التصحيح إذا ما خصصت بعض هذه المساحات لمخاطبة الغربيين لتعريفهم بالدين الإسلامي وتفنيد الشبهات التي تروج عنه وتنويرهم بالحقائق والآراء التي تساعدهم على فهم أفضل للإسلام والمسلمين.

ونقترح في هذا الإطار بث قناة فضائية إسلامية يخصص جزء من وقتها لتوجيه برامج راقية المضمون متقنة الإخراج تخاطب العقول الغربية باللغات التي يفهمونها وبالأساليب التي تحفزهم على التفكير وإعادة النظر والاقتناع. ويكون هدف هذه البرامج تقديم صورة حقيقية عن الإسلام: عقيدة وحضارة، وعن المسلمين: ماضياً وحاضراً. وبذلك يمكن أن تكون هذه الصورة بديلاً عما تروج له وسائل الإعلام الغربي من صور مشوهة ومزيفة عن الإسلام والمسلمين.

ومن الأهمية بمكان أن يعتمد الخطاب الإسلامي الذي نقدم به الإسلام للغرب على أسس مدروسة تلتزم بأصول الإسلام وضوابطه الفكرية والحضارية، وتراعي مكونات العقل الغربي وأساليب مخاطبته والتأثير فيه. ولعلّ من أكثر ما تنبغي العناية به أن يقدم الإسلام للغرب على أنه دين هداية ورحمة يستهدف خير الإنسان وصلاح الناس في هذه الحياة وفي الحياة الآخرة، وعلى أنه حضارة أخلاق وعطاء يتسم بالتسامح والتعايش بين الشعوب مهما اختلفت أعراقهم وأديانهم، وعلى أنه منهج

حياة وواقع يمكن أن تجد فيه البشرية حلولاً لمشكلاتها الاجتماعية وأدوائها التي تعاني منها.

إننا إذا قدمنا الإسلام في هذه الصورة البديلة ـ وهي الصورة الحقيقية له ـ سنبدّد كثيراً من المخاوف التي نسجتها في نفوس الغربيين الحملة الجائرة على الإسلام في الإعلام الغربي من جهة، والتصرفات السيئة لبعض المنتسبين للمسلمين الذين رسخوا الصور المخيفة للإسلام من جهة أخرى. وبذلك نقدم الإسلام للغربيين لا بوصفه قوة سياسية معادية تطلب النزال وتدعو إلى التصادم، بل بوصفه تحدياً فكرياً وحضارياً يدعو الناس إلى تأمله والتفكير العميق في مبادئه وقيمه وتقدير إسهاماته التاريخية والاستفادة من معطياته العصرية.